الفصل الخامس

الأدب والمسرح

١٧١٤ ـ ٥٦

١ ـ دولة القلم

كانت انجلترة تشغى بالطباعة على الأقل ان لم تشغ بالأدب • ففضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان الالمام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة • وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا وترويحا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لرتشردسن والرواية • وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى انشيء أول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما أصبح عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها • وبدأت الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للأدب ، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد • ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم فى كبار الأقلام بالمغريات السياسية ـ كما حدث من قبل مع أديسون وسويفت وديفو •

وشحذت شهية الجمهور للأخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترة المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، وأصبحت الجريدة قوة يعتد بها فى تاريخ بريطانيا • ففى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، واكثرها أسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين • وكان كثير منها تعينه الأحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الأقليات الموسرة الجرائد لتملى أفكارها • واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات • وخصصت « الديلى أدفرتيزر » التى أسست فى ١٧٣٠ أول الأمر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضـــافت عنصرا مثيرا من الأنباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها • وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثـــل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسـوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « ادنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى أجل فقط فى ١٧٥٦ • وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره •

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها • ومع أن روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين أن يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث•وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داوننج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) • وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر أو بلد • وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انهـا حكومة الصحافة • فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن أثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة(٢) » •

وراح الطباعون يعملون بحماسة جـــديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترة كلها ثلاثمائة ، اثنان منهـم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا أسميهما على طقم حروف طباعية • وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة • ومن الشركات الباقية الى يومنـــا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ • وكانت كلمة « publisher

الناشر » تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . وألف بعض باعة الكتب ، كابى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الأسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا غمر بعد الفترة الأولى ؛ على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ارلندة وهولندة أن يذشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترة منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفح البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترة » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للألياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون أوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تاليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ ــ ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح امير الأدب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب الماجورون ــ

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين ـ ينامون ثلاثة فى فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس • ولم تكن العلة فى هـذا الفقر شح باعة الكتب وعدم اكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الأدبية اتخاما لم يسبق له نظير باصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا فى قبول الاجور المنحطة • وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح فى المال والأعمال ، مع انسـلاخ الأدب عن الحمـاية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين • وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسـا يسـتقبلون بالترحيب فى أروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترة ـ باستثنائين أو ثلاثة ـ يقصون عن « المجتمع المهذب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين • وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجـا فولتير الا يدرجه فى زمرة الكتاب • وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه أنه شاعر وجنتلمان معا • وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجـل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السـلوك • ولكن الأمـر كان على النقيض ! •

٢ ـ الكسندر بوب : ١٦٨٨ ـ ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبـدأ بنسب صاحبها وتنتهى بماتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانبائنا أن « الكسندر بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لأبوين لم يتحقق أحـد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » • أما أبوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر • وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكى الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السـنة التى حطم فيها خلع جيمس الثانى آمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك • وخصت الأم الصبى الذى كان وحيدها بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى عموده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف •

وقد عهد بتعليمه الأول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانـوه على اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر اقل ، وعلمه معلمـون خصوصيون

آخرون الفرنسية والايطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشيط ، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر • يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
ألثغ ببحور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره أتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى • فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ • وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سذوه الثلاث والعشرون ، أدهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه — حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فانهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبى • هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد — « أفكار طاما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولع « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية • وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ، ونظريته عن بوالو • واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكاس اثمن من نبيذها • ومع انه ظل يجهر بكثلكته ، فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بان الأدب ينبغى ان يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق • أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هـــذبه وصـفاه الذكاء • وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى أن يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنيى ، والذى يغزو الآن انجلترة ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحـــدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بارو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمـــدة هادئة • وهـكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟ •
رجل لا يحرفه رضي ولا يميله حقد ، لا هـو متحيز فى غبـــاوة
ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث ســمح ، ونفس
تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع أديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن ينسي فى معارك الكلام • أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا ـ ارابيلا) قانون ديانا (**قانون العفة**) ،
أم ان قارورة هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
أتراها تلوث شرفها ، أم ثوبها الموشي الجديد ؟
أتنسي أن تتلو صلواتها ، أم يفوتها عرض بالأقنعة ،
أتضيع قلبها ، أم قلادتها ، في حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا في ثرثرات جماعة الأشراف ، وقمارهم في هامتن كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق من البحر العميقى « الايامبى iambic » ياخذ بالألباب) . فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة من النشوق فى وجهه ؛

« وبغتة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الاثناء يغتصب الاقزام او السيلفات او السمندلات الخصلة ويجرونها وفى اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنبا يفوق بريقه تلألؤ شعر بليندا .

وقد ابهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتها ، وانديتها ومقاهيها . ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر فى انجلترة ، وغدا كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يضف جديدا لشهرته بالأبيات المملة التى وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس له الاحرار بعد انتصارهم فى ١٧١٤ انه فى تلك القصيدة كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الأسرة المالكة التى سقطت (١٣) . ولكنه عاد فاسر جمهوره فى ١٧١٧ بنظمه فى مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيـل اليه انه المذمـوم فى ابيـات بوب الطائشة :

« ولكن أبيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكأنه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تاملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد انتقى عيوبا حقيقية فى فكر بوب وأسلوبه ، وعرضها فى اطار مقذع . فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوبيد او ضفدع أحدب ، وهناه على أنه لم يولد فى اليونان القديمـة ، والا لالقت به عاريا بعد ولادته لقبحه (٩) . ولعق بوب جراحه وترقب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢) وكانت تقليدا سافرا لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرا (١٦٧٤) ، ولكن الناس أجمعوا على أنها فاقت اصلها . وخلاصة الموضوع ان اللورد روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز ارابلا فيرمر بقصه خصـلة من شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة . واقترح رجل يدعى كاريل على بوپ ان ارابلا قد يهدأ سخطها اذا قص الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا انتهى الأمـر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة اديسون ، وكدسها بعدة من الشعر الملحمى ـ الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات، والسمندلات ، والحوريات ، والأقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه « المليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشـاعر دنيس . وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة ربة شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتالق تالق الأحجار الكريمة التى رصعت بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات التجميل التى يسلح بها أحد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى مرادفات تهكمية ما سيحفل به يومها من جلائل الأمور :

مقفيين couplets رسائل هلويز وأبيلار المختلقة . فنرى « الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى أبيلار المخصي أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبى ،
تعال ، وبنظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من افكار السماء ...
اخطفنى ، وأنت تهمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
أعن الأصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، أبعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الألب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات باسرها !
أواه ، لا تأت ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الألم الذى ذقته لأجلك (١٤) » .
ومع ذلك تثق أنه آت اليها فى ساعة احتضارها ، لا عاشقا بل كاهنا :

« ليتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب أمام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت (١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بأن ينظم ملحمة ، ولقد بدا كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له أن يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت تكون منطقه الذى فطر عليه .. واستشار أصدقاءه فأمنوا على الفكرة . وقدمه أحدهم وهو جوناثان سويفت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق منها .. فلما أخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تعول «الكسندر» الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذ كان سويفت فى موقع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « أفضل شعراء انجلترة هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومر بالشعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من أن يكتتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له ألف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجموعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . وأقبلت الاكتتابات تترى رغم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتتبيه . وبما أن المكتتبين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فان بوب كسب ٥٣٢٠ جنيها (١٤٨ر٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترة الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على أربعة أقسام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . وأثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب أنها ليست فى الحقيقة الا بقلم أديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف أديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشراح المدرسيين ، وأنجز أكثر مهمته بالمضاهاة بين الترجمات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحر الايامبى (العمبقى) الخماسي التفاعيل iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فاما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب ألا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأسلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاخر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجز ، عبرا بها — رغم اعتراضات بنتلى — الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كأحب

ترجمة للالياذة . قال فيها جونسن « انها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضارعها اية ترجمة أخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترة الى أن أجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورث اللعنة على الأسلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترة الأوغسطى.

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ ـ ٢٠ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعه حديثه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، أقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

واقنعه لنتوت أثناء ذلك بان يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلما محاكاة أسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الأوديسة (١٧٢٥ ـ ٢٦) ـ التى قصرت كثيرا عن الياذته ـ نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكب الأربعة والعشرين ، فى حين أنهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيها ، أما هو فبلغ صافى ربحه ٣ر٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق ان اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير مدين لانسان أميرا كان او نبيلا (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسة أفدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقة بالطراز الطبيعى ، متحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شيء أنبل من الملك فى ثياب تتويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغـــارة » زينة حالمة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجـــان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجـو استضاف الكثير من الاصدقاء المشهورين ـ سويفت ، وجـــراى ، وكونجـريف ، وبولنبروك ، وآربثنوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيـــو ، والاميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارته فى حى اطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من أحد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقارب على التيمز ، واقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربتنوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجراى ، وبوب ، فى نادى سكريبليروس الشـــهير (١٧١٣ ـ ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، واضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاظمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالأدب وانتهت بعداوة مرة . وساكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٣٦) ، وتبادل الاثنـــان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبـــؤة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تاثير فلسفى . وقد اثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغـــلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقـة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو أنه وضع هنا خطا من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسي بسبب حبى لهذا الرجل » ـ وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد انه كان هناك شيء يحب فى هذا الشـاعر الذى صـــورته الرواية المتواترة ، بل صوره قلمه هو احيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى ان نذكر دائما انه كان ممرورا ـ وله العذر ـ بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جـــذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصـــير ، كله حيوية ، طويل الســـاقين والذراعين ، لا تخطىء اذا رمـــزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المـائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدار من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهمـا ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدرة الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشـــكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقيـــة . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردسن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هـذه الطلعة الحسنة (٢٦) ـ كلها تيقظ وحساسية ، ولكنا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شان كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . وندر أن تجاوز فى ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكمـا يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حمـــله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويفت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قيلما

بواجبهم نحو آبائهم(٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه أطهر عاطفة وأبقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ؛ ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كانفى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمرأتين اللتين ظن انه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، أحبت الشاعر العاجز حبا حسبه المتقولون علاقة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بأنها « صديقة ... كنت أتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة(٣٠) » . وبات فى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصي لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الأدبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه أحيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب سترييت أقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجراى ، وعلى اقصاء سويفت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفأر مسموم فى جحر » يعنى كتدرائية دبلن . أما عن الباقين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكمور ، وأوزبورن ، وكرل ، وكيبر ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وآرنل — كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر — ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

لأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هـذا جعل الجمهور اشد تهافتا على النسخ ، وكيف ان الطبعة تلو الطبعة كانت تطلب وتنفد ، وكيف ان الضحايا الفوا اندية ليكتلوا الثـار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته واحرقوها • وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينا ياخذ معه فى جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم • ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب واصحابه (١٧٣٠) « مجـلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب • وفى ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين واحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد ــ هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اننا نتخذ فى فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك فى الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى ابعد ما نستطيع ••
أو ، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للانسان ، والانسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل فى انفسنا ، واننا لم نولد الا لانفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك فى شيء تشككنا فى الروح والارادة (٣٢) » •

وواضح ان بوب كان ينقب في الفلســـفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » فى ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات • وهناك بعض الادلة على أن الفيكونت كان قد نقـل الى الشـــاعر ربوبيـــة شافتسبرى مشحوذة بحكمة الدنيا (٣٣) • وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية • يقـــول جوزف وارتن « لقد اكد لى اللورد باثورست غير مرة انه قرا كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصـــلة فى سلسلة من القضايا كان على بوب ان ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » • ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التى تخلفته عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرته الرسالة الأولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من ألمع ما الف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » ليبنتس ، « وفردوس ملتن المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضي استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا الا بالجهل :

« فارج فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، وأعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بأن يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث أبدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها أبدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحيـــاة من مظالم ؛ وعلينا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لابد يرتب كل الأشياء لكل الأشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ، ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقيقة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب(٤٠) »

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الأبيات المذكـرة تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم أوحد فى أمر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، واضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن « محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ،
نكرهها حالما نراها ،
ولكنا لكثرة ما نراها نالف وجهها ،
ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وان كانت كلها ألوانا من محبة الذات الا انها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخبدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول أشكال الحكم
فاصلحها هو أفضلها ادارة وتصريفا
وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ،
فلن يخطىء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فاذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون أحيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية
لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ؛ »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد ياسي البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصـــدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقية ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، واذا سلمنا بهذا
كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخـــر يمكن أن يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير • وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضـــن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، أما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم •

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هـــذا الأسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه • يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر باوجز مما بالنثر (٤٦) » • ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغـــه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها ـ وحشد المعنى الكبير على الأقل ـ فى حيز ضيق • فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد • وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد أنكر صراحة أصالة أفكاره ، وأراد أن يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما أراد • وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين • ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الأشرار • وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا •

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انســانية أو بشرية » منظومة • فالقول بان « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدا أنه يغرق اللاهوت كله • فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليـــه قسيس سويسرى يدعى جــان كروزاز ، فزعم أن بوب قد ترك الله فى طــريق جانبى فى قصـــيدة مفروض فيها انها تبرر طرق الله للانسان • ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وربرتون الفحل ، فقــد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها • ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة

حلوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السـنيون تماما ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رأيى أبدع وأنفع وأسمى قصيدة وعظية نظمت فى أى لغة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور آربتنوت » دافع فيها عن حياته وأعماله ، وقتـل خصوما جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لأديسون الذى سماه « اتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرفى المخنث الذى كان قـد زل فوصف بوب بانه « قاس كقلبك ، مجهول كاصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى أبيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صوره وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشيء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقـول ! أيسـتطيع سبوراس أن يحس ،
وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الأجنحة ،
ابن القذر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كأنه الضفدع الأليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات أو أحاديث سياسية ، أو حكايات ، أو أكاذيب ،
أو غل أو سناج أو قوافى أو كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حينا ، هابط حينا ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شيء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراعته فى هذه الهجمات القتالة ـ

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وانه فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح لملحمة المغفلين رسم صورة قوية ـ هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته للدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتثاءب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تامل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضي القديمة !
أمامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشي كل أقواسه القزحية .. ..
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفىء الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسال ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجا الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا تحاول ! فهى تحملق ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدرى ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضي ،
والنور ينطفىء أمام كلمتك القاتلة ،
ويدك أيتها الفوضي الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس يلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب انحلاله هو انهيارا للكون كله . فقد كان وهو بعد فى الخامسة والخمسين يموت من الهرم . وأصبح المشي عسيرا عليه لأصابته بالاستسقاء ، والتنفس مؤلما لأصابته بالربو . وفى ٦ مايو ١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفيق منه فترات ، وأعرب فى احداها عن ايمانه بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكى أيستدعى له كاهنا فأجاب بوب « لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لأنك ذكرتنى بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (اذا صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم يكن من حقه أن يدفن فى دير وستمنستر لأنه كاثوليكى ، فووري التراب الى جوار أبيه وأمه فى تويكنهام .

أكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدح والذم شاركت فى تسميم هواء انجلترة الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العافية التى تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقريا ؟ بالطبع ، لا فى الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع الأدبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وايجاز التعبير ، وخصب العبارة ، كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - أطول من أى شاعر آخر - أمير الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما أخر نموذجا يحتذيه الشعراء الانجليز ، الى أن جاء وردزورت بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهرول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الآلى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة فيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد أن يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحو الأفعال النبيلة أو اللطف الانثوى . واستنفد خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتطاول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقاده .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشعرى الأكبر لعصر انجلترة الأوغسطى — الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ — ١٧٤٤ . فمعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية — تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة — فى الحديث ، والعادات ، والألفاظ المهذبة ، وبيسر السلوك ولطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطط الاليزابيثى وعلى التدين البيورتانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترة مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة — كل أولئك تضافر لاخضاع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترة الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترة الأوغسطية يحط من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاها دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيوية الكلام الاليزابيثى وقوته ودفئه . وخضعت فورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، ألزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على أن الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام سلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والأمل المحزون • فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترة الكلاسيكى •

٣ ـ أصوات الوجدان

لم يكن الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب • فقد رأى هومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الحقل والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم • ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهم الحريصين على واقعهم • وعمق الشعراء ذواتهم بلمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واستجابتهم لها ، وبتغلغلهم الى ما وراء الأفكار ليصلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها • فلم يبالوا كثيرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائية وذوت الملحمة • وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الايمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبية على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوسطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكار القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا •

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان • ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ وألم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ وألن يشتق المتشكك هيوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور •

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده • نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الأساتذة لأسلوبه لأنه شعرى

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ، وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى حـذاء (٥٥) . على أن اهـــداءه اياهـــا الى السر سبنسر كونتن أتاه بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبـلاء الانجليز لم يكونوا صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزأر والسيل العميق يهدر ،
أو رأى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؛ »

وكيف راقب من الشاطىء الرياح وهى تحرث البحـر ، وتقلب « اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسيها ، وترفعها رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفـــلاح وقد اقتنصته عاصفة من الثلج الذى يعمى العيـــون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواه ، ما اقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة .. ..
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كاس
الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضـــيق المر ، وقـــد اخترمت اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، وراع جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف » (١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا أول مرة
بأمر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة الألبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته « الربيع » فى ١٧٢٨ ، وباضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الأربع كلها فى ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقا لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (أمير ويلز) الذى سأله عن أحواله ، فأجاب « انها فى وضع أكثر شاعرية من ذى قبل » . وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافأة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم قضي عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترة الأقل شانا، ووجدت أتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان ـ لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) • وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القـــرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك أكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسي المفضي الى وردزورث وتشاترتن • أما ينج فبعد أن ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمـل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر ليلية فى الحياة والموت والخـلود » (١٧٤٢ — ٤٤) • وقد شجب فولتير هذا النتاج الليـــلى لأنه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعـــه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فيهما :

« اذك مسرف فى الذكاء ، والخلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلهـــا فى رجل واحد (٥٦) » •

وأما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب أقل مما كتب ينج وأجود منه مرتين • هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وأنفق آخـــر دراهمه فى صقل الأبيات الألف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجـن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين • وأجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وقد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى بلل الندى أصابعه الباردة
ليجمل ترابهم المقدس ،
هنالك يكسو بالعشب ثرى أعطر
مما وطئته أقدام الخيال •
اجراسهم تدقها أيدى الجان
ولحن الموت ترتله أفواه لا ترى ،
هنالك يحضر « الشرف » ، حاجا أشيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجـــدان هؤلاء ذلك الروح الغريب الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقـــة . ذلك هو توماس جراى ، الذى كان أحد اثنى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى لندنى ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رأته يتشنج . فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى ايتن ، حيث بدأ صداقاته المشئومة مع هوراس ولبول ورتشرد وست ثم مضي الى كمبردج ، التى وجدهـــا « مملؤة بالمخلوقات المكتئبة والمعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فيه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبـــال الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق للطرفين » لكل منها برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادســـة والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك ، وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية ، فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئا ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الخيرة المكثرة عن نابها ،
التى تقرض القلب فى شغاف
والحسد الشاحب ، والهم الذابل ،
واليأس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النفس ٠

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطا رهيبا ،
هم أسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظرا من ملكتهم ٠
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة ٠
ثم ها هو الفقر أقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخدل الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل ٠

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضي عليهم كلهم بالأنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واها لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطىء مجيئه أبدا ،
والسعادة سريعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فامسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيما
فمن الحماقة أن تكون حكيما » ٠
وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جراى الى كمبردج ليستانف دراساته ٠

وأرسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مرثية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصـــائه وطبعهـا ناشر لص وحرفها .. وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى تعد من أروع قصائد القرن ألبس جراى الاكتئاب الرومانسي لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مستبدلا بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار شجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « ألبيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر شموخا حتى من هذه ، واسـمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هاتان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نشرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيطة مبلغا جعـل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جـــدا ـ فلا أحـد يفهمنى ، وأنا راض بهـــذا تمـــام الرضي . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام .

واذ انكفأ مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل ـ ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترة تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخـــرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيدة « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) ٠

وطبقت شهرته الآفاق حينا ٠ فانعقد الأجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها ٠ وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » ٠ اما آدم سمث فاضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن أناقة بوب وتناغمـــه ، ولا ينقصـــه شيء ليكون ــ ربما ــ أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظـم شعرا أكثر قليلا مما فعل (٥٩) » ٠ وأعجب جونسن بالمرثية ، ولكنـه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية ٠ « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف أصابعه ٠٠٠ وانى لأعترف أننى أتامل شعره برضي أقل مما أتأمل حياته (٦٠) » ٠

ونستطيع أن نقلب هذه الحكمة مطمئنين ٠ فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض ٠ وكانت أنبل أحداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل أجيـــالا كثيرة من ادمـــغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى البيون ٠

٤ ــ المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحـــن بصدده ؟ كان أهمهـــا مسرح دروري لين ٠ ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيـلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هييماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزليـــة ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس ٠ وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى الســادسة مساء ٠ أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ أيام عــودة الملكيـــة ، فتحـــول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الأوبرا ٠ وكان المتفرجـــون المحظوظون أو الأثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح ٠ واتسع

« قاع » المسرح وأعلاه لقرابة ألفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثـــال كتى كلايف ، وبـــج ووفنجتن ـ التى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هى الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس. وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحى الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى انجلترة بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بأن يكبح شيئا من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حتى لقد أدهش أوربا كلها أن يتقاضي السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئا فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسي فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قـانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثنـــاء على مسرحيـــة « التاجر اللندنى » ، التى أخرجت بلنـــدن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لأنها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوســطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنـه يطبق بتساهل كبير .

الى المشاهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامرة مزدوجـــة ؛ أنزل المأساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويثق بأنه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفـــكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبى تاجر على يد غانية أغوته ، والموضـوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق وملفوف فى العاطفة الرقيقة . وقـد ضفقت للمسرحية طبقة وسطى أبهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليـــا معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملتـــه لأدخال « المأساة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسي . ونقل لسنج نبرتها فى « الآنسة سارا سامبسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الأدب كما تؤكدها فى السياسة .

أما فى اسكتلنده ، فقد أجج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجه تمثيلية « دجلاس » (١٧٥٦) ، وهى أنجح مأساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفـــد هيوم فى نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف شاك ، فقال انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجيـــة (٦٤) » . فلمـــا رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون» من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيـــع التذاكر . وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلندة ، لأن جون هيوم حول أغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنيـــة ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لأنه جلب العار على ردائـــه ، وذكرته « بالرأى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيليات وممثلى المسرح لأضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارليل لحضوره التمثيل . أما ديفد هيـــوم الذى اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمـــه ، وكتب اتهاما حارا للتعصب . واستقال جون من قسوسيته ، وذهب الى لندن ، وشهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتهـــا بج ووفنجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشـــد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخساوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلى شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا بأكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز سيدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الايام التى لا تمثل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حققه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الشحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاى حياته صبيا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرتيرا لأيرل كلارندن ، وواحـدا من أكثـر أعضـاء نادى « سكريبليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرح يخفف من غضبته للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاى بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع في شوارع لندن» . فقعقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف ، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مبـاراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخففون جيبك من أثقاله بأصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بايك ؛ كل هـذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاى بنظام الاكتتاب ، فوافتـه بالف من الجنيهات خسرها فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ بأغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الأمر يتجر فى البضائع المسروقة • ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل أصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح • ويفسد عليه أمره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شأن هذا الغزام أن يعطل تسخيره مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة • وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب أن تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنـــات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآخرين لها ، على عكس ما نلحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم(٦٩)» • على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليـلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى ساقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت • أيتها اللعوب » •

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :

« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
أيطيع كيوبيد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره •
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيته أسلم وأفضل
أن أتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » •

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشي أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى • فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشنقوه دون ريب • ويظهر ماكهيت على المسرح ، ويهدىء روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها أنه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبى
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » •

وتضرع اليه أن يقسم أن يأخذها معه اذا نقل • فيقسم قائلا « أفى استطاعة أى قوة ••• أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ••• لو ألقيت على شاطىء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام •
هى ••• لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى •
هو ••• ولأحببتك اليوم كله ،
هى ••• ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ••• لو سرحت معى فى هيام
هى ••• فوق التلال ، بعيدا جدا » •

وتبوح له بان اباها يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي أن يختفى برهة • فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه تعليماته بشان احدى سرقاته • فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظـــر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجـــاته ، وتحرراته من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الأغنية :

« وداعا اذن يا حبى ـ وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى أموت راضيا ـ وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لأننى بهذا أرضي زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعـــل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بان « الأوبرا يجب أن تنتهى نهـاية ســـعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعـــن الشحاذ ، وينقـذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميـــع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاى أن أفاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى ألمانى يقطن انجلترة ، واختار بوش موسيقى لأغانى جاى من الالحان الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما ســـبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضا طـويلة فى كبرى المـــدن البريطانيـــة ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارتين ، وقد حولت الى فلم من أبهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبـودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجـال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاى لأنه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولأنه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاى أن يخرج تتمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الأمناء الترخيص

بها • فنشرها جاى ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاى غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) • وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته •

٥ ـ الروايــة

كان الحدث البارز فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة • فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية أهم من أى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد • ومنـــذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الأحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترة •

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتـــابة • فللهنـــد حكاياتهـــا وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها أساطير لراعوث واســـتير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والأقطار المسيحية الوسيطة أخرجـت رومانســيات مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفللى novelle " (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وباندييللو ، وأسـبانية النهضة وانجلترة الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لأوغـــاد رائعـــين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطـــول كثيرا من الحب • وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر •

ولكن أكانت هذه الآثار روايات بمعنانا الحالى ؟ لقد أشـــبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخوص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبـــكة التى تربط بين الأحداث والشـخوص فى كل متطـــور • لقـــد كان فى قصـــة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينهـا . فلمـا ملك رتشردسن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشـخصية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ ـ صموئيل رتشردسن : ١٦٨٩ ـ ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجـديدة ابن نجـار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عاقها عن تأهيله التأهيـل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، وأعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخـذته رواياته ، أعنى شكل الرسائل ، وما أفاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وأفاده جده واقتصاده ، فانشا مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وأنجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حداثتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، وأعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وأنجب سـتة أطفـال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهـم على التحـرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشئون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردسن يعد هذا الكتاب ـ وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف ـ خطر له أن ينسـج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ ـ ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فان رتشردسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى باصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت ؛ سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها ؛ منشورا لأول مرة ليربى مبادىء الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأضاف اليه رتشردسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الأغواء ـ وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناى الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما واعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتززتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الابوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف ـ نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف ـ لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشي عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدى على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهره رتشردسن كاتبا سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرة اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الطبقى اليها . ويختتم رتشردسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحت (فضيلة باملا) بالقدوة المحمودة فى عقول أى أشخاص أفاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب الثواب والثناء والبركة » .

وأضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلافا مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبهـــا فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفســـه لرئيس الشـــياطين (بعلزبول) . ونفدت أربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشرون رتشردسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فتريث ، ومضي فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التاليـــة التى جاءته بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها الفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجـــرد خطة للمساومة ، وأنها صورت فاسقا صلحت حـاله تصـــويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلاصة القصة ان لفليس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاربسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته • وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق أبوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ، فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الاذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها • ويستأجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من أقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس • وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا • فيكتب لصديق له :

« ••• كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة • تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجاته) كل عيد من أعياد القديس فالنتين •• لما كان فى الأمر بأس على الاطلاق ••• وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على •• أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) ••• ولن تكون هناك امرأة عاقر ••• فكلا الجنسين سيحتمل الآخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر ••• وستزدحم الصحف بفقرات •• •• تعنى بتعارف المحبين • عندها ألن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » •

ويحاول اغواء كلاربسا ، فتنذره بأنها قاتلة نفسها ان لمسها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لأنا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها • أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا برء منه لأنها قبلت نصف قبول أن تهرب معه • وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة اليه أن يغفر لهـــا بل أن يسحب اللعنة التى استمطرها عليها ، والتى تعتقد أنها ســـتقفل فى وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمـــرة لا يسندها فيها غير ايمانها • أما لفليس فيختفى فى فرنسا ويقتل فى مبارزة بيد عم كلاريسا ، وأخيرا يأتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة •

انها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن أن يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت فى انجلترة القرن الثامن عشر مثار خلاف قومى • فكتب مئات من القـراء الى رتشردسن فى فترات النشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) • ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « فى هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة فى الربيع (٧٧) » • أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التى بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنـــه آذى ذوقها الارستقراطى • قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التى بكت على كلاريسا هارلو كمـــا تبكى أى بائعة لبن فى السادسة عشرة لسماعها أغنية « سقوط السيدة » الشعبية • والحق أن المجلدات الأولى الانتنى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب فى جملته بضاعة غثة ... ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل أفكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنهـــا أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لأجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » •

والحت نساء انجلترة الآن على رتشردسن المنتصر فى أن يصـــور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية ـ فى ظنهن ـ فى باملا • فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التى رسمها فيلدنج لرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جراندیسن » • ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثاليـة ، على الأقـل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته • ولقد حاول رتشردسن أن يجمل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكنا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا • أضف الى ذلك أن الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظـار • ولقـد أفلت جراندیسن بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين •

وألح رتشردسن على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الأدبى • فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الأحاديث) ، ولكنها أتاحت له عرض الأحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، وأضفت على الحكاية ألفـة لا تكاد تتيسر فى شكل أقل ذاتية • وكان مما يتمشي تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء • ثم ان طريقة الرسائل هذه أفسحت المجـال أمام موهبة رتشردسن الكبرى – وهى عرض خلق المرأة • هنا أيضا توجد عيوب • فعلمه بالرجال أقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء أقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور – ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى • ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى •

وتقبل رتشردسن نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنـه بنى لنفسه بيتا أفضل • وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » – وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية عصبية وأرقا . وفى ٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تأثيره الدولى أعظم من تأثير أى انجليزى آخر فى عصره باستثناء وسلى وبت الأب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج الخلقى لانجلترة جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كاتبا لا ضريب له فى القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية تعدل أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقريظ لرتشردسن » (١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى المانيا ترجم جيلليرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تاثرا من جراندیسن (٨٠) ؛ وانتشي كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جراندیسن ؛ وراح الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛ والناموس الأخلاقى الذى يدين به عصر صناعى داروينى يهرب فى ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكنا نعرف أن هذه الروايات مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، اكثر مما مثله شعر طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ونتبين فى رتشردسن الأب — كما تتبين فى روسو البطل — لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدنج العارمة .

٣ ـ هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ ـ ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيىء السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا ـ على حد قوله ـ الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيليات الكاريكاتورية . واستعملت الليدى مارى مونتاجيو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح دروري لين تمثيلية « الحب وراء أقنعة عديدة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشهدها معلنة عن نفسها فى تفضل ؛ وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تأليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح فى « مأساة المآسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٫٥٠٠ جنيه ، فأخلد فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع فى حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميليا بوث التى لا حد لصبرها وأناتها . وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » .

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيليات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردسن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالقها المتعمدة كل ما فى فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) بدأها تقليدا ساخرا

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم • ولام رتشردسن فيلدنج لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيسه » الى باملا (٨٤) •

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشردسن ، وراح يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والآداب ويجعل كتابه ملحمة • وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشـــخصيات التى تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو ـ واوز ، الذى تفاجئه المسز تو ـ واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة بتى ثم تصفح عنه ، و « احتمل فى هدوء ورضي أن يذكر بذنوبه ••• مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » • واذ لم يكن فى طبـع فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية بأكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية لكتابه • وقد بدا هذا خيارا بعيد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثـــا عن ناشر متهور • ولكن المؤلف أعطاه « بيبة » متينة ، ومعدة قوية ، وقبضتين صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فأنه مقـــاتل كفء يصرع سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته • وهو الى حد بعيـــد أحب شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهات غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والـدم • والذين كانوا فى شـــبابهم يتأثرون تأثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبـة الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا • ويقابل فيلدنج بينه وبين القس ترالليبر الجشع ، الذى كان « من أضخم الرجال الذين يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور السر جـــون فلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » •

وازدهى النجاح فيلدنج ، فأصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » • وقد احتوى المجلد الثالث على آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم » ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى تروى على الأصح أفعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » • وكان فى شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصـــوات

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عنـــدى خبر ويا له من خبر أفضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى ــ أى ما يسميه عليه القـــوم بالوقوع فى الغرام ــ وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضـــل كله لمواعظـــه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقـــول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عقابا فى الآخـــرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنهـــا طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسي مرة كل كلمـــة قالهـــا لى القس آدمـــز .

« ولست أشك يا أختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاح أن تصـــلى لكى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثـــال يوسف الصديق سميى ، فأصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومهـــا الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرهـــا وتحقيقها • وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر ممـا أحسنوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد ان « اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهـائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عجـــوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) » واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضأل (٨٨) •

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست »• وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) • ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها • وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفـائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها • وكان يصيب حظ الأسد من مكاســبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن • وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايربلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتــه من ذلك بامتثالهـــا فى الوقت المناسب (٩٠) » • وبعدها تزوجت وايلد • وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلبة ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان • ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام • ويرافقـــه قسيس الى المشنقة • فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمـــور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمته ـ التى قـل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقهـا ـ أن علق من عنقـــه حتى مات (٩١) » •

وفي أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجته ، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا وأميليا • وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذي أبدته خادمة زوجته التى بقيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ • وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) قاضي صلح لوستمنستر ، ثم لمدلسكس بعد قليل • وكانت وظيفة شاقة ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المتقاضين الذين يوافونه فى محكمته بشارع بو • وقد وصف الجنيهات الثلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقود على وجه الأرض (٩٢) » •

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ ــ ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » • وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من القضاء والكتابة المأجورة، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهة الكتاب القوية وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز • ومع ذلك فهاهنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية • فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعقلا وخلقا وشخصية • ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » •

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » باقصي ما يملك من قدرة • فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة • والمجتمع مصر على زفض « الطبيعى » فى فننا •• •• وأنت تأبى أن تسمع •• •• ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام ــ تأبى أن تسمع واقع حياة أبنائك وحديثهم » •

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى • وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بأنه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارىء سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية أن يجد أن هذه الأحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخوص وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جراندیسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطا شديدا ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس نواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيرا منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سكواير وسترن « الذى يعتز ببنادقه وكلابه وخيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تأتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جريا على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ اطلاقا على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا . وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بأنه ربما كان أبا لطفلها ، ويروح عنه كثيرا أن يجد أنه ليس الا واحدا من عديدين يحتمل أن يكون أحدهم أبا للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الآثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباها ، سكواير وسترن ، كان قد هيأ جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن أخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات • أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أيكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها • ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هـذا أسـفاره الحـافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج • ويظل قلبه مع صوفيا الكسـيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدها الى الأبد ينزلق الى فراش المسز ووترز • وبعد شدائد كثيرة ، وتعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكواير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله • ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها •• هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أيكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد ••• يمينا انها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوفى ؟ ••• أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن خمسة جنيهات لكراون أن سيولد لنا صبى بعد تسـعة أشـهر من غد (٩٥) » •

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هـذه الخصوبة أو الصراحة • ذلك أن أوصافهم لا تشـمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة ـ هذه التى توجد فى أى مجتمع • أما فيلدنج فآثر رجل الغريزة عن رجل الفكر • واحتقر مهذبى الكتب ومطهريها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنـوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم • وفهـم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخـرى الى دنيـا الأوهام • واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا • ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليـا » هو الدكتـور هاريسن ، وهـو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته •

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشـكلات التى

كابدها فى عمله قاضيا . وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام . فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء . ويفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن ، وشنق كل أفرادها تقريبا . وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخر رواياته « أميليا » (ديسمبر ١٧٥١) . انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فأقام الآن لذكراها أثرا صورها فيه الزوجة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر . فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن . وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الآنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجته وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبل دعوة الآنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » . وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين . ويجد القارىء هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخر لتثير سخط دكنز . ويستطيع القاضي ثراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك . فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » . ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لأبنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لأننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزلدا ، هى المثل الأعلى للمرأة الصبور كما تخيله فيلدنج . يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا . وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجها وتطيعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينيا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء ثيابها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الآنسة ماثيوز اللئيمة تشي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حليها الضئيلة الثمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تفت فى عضدها أخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والأنظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك شأن روسو وهلفتيوس ، يرى أن أكثر الناس طيبون بفطرتهم ، وأن ما يفسدهم هو البيئات الشريرة والقوانين السيئة . وعند ثاكرى أن أميليا « أكثر الشخصيات فتنة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربما لم تكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح أميليا بطبيعة الحال وارثة ، وتعتزل هى وبوث فى ضيعتها ، ويستقيم حال بوث .

أما خاتمة الرواية فلا تكاد تبررها مقدماتها ؛ فبوث يبقى بوث على الدوام . ولقد حاول فيلدنج أن يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن فزع من اميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى يناير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلقه الى روايته « روديك راندوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة تموت . وكان شتاء ١٧٥٣ – ٥٤ أقسي من أن يحتمله بدنه الذى هده العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصبح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . ففى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من ألطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسي دعائم رواية السلوك الواقعيـــة ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف أتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره • ولكنه لم ينجح مثل هـــذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل • ولقد عرف من حياة وطنه الجســـد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحـــه ، وغابت عنه مقومات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء • ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين •

٣ ـ طوبياس سمولت : ١٧٢١ ـ ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه • وكان أصغر الرجلين اسكتلنديا وأفق هيوم على التحسر لأن انجلترة عاقت الطريق الى فرنسا • ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترة عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضوا فى البرلمـــان المتحد • ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمـــره ، ولكن الأسرة أنفقت على تعليم الصبى فى مدرســة دمبرتون الثانوية وفى جامعـــة جلاسجو حيث درس المقررات المهدة لدراسة الطب • ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل مأساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك• وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » • واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا • وفى جميكا ترك الخدمة ، وهناك التـقى بنانسي لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترة • وسكن بيتا فى داوننج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة • لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ •

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول احـــدى الشخصيات • ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنــه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج • وقد شده البشر وأفعالهم أكثر ممـا شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث وأضفى عليها نتـــانة الأقذار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفجل • وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر • ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر ـ كما اختبر صانعه ـ عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية • وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن الثـامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! ـ مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين يحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المباول بحثا عن الفراش الخطأ ، والنساء يصرخن مستغيثات من مغتصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويشتم • فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسأل الكبتن « لعنك الله يا سيدى ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقير ؟ تبا لك ! وويل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » •

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = ســـمولت) مســاعدا لصيدلانى • ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر • « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضـور الذهـــن ما جعلنى أنسحب فورا ، وشكرت حظى ألف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فأكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاويهن ، ويعالج أمراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهـن ، ويلاحظ كيـف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعـــاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » •

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ ألوذ به غير الجيش والبحرية » • ويعفيـــه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعى وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « شندر » • ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا • وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن الكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضي بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا •• ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فيسبح الى بر جميكا ، ويصبح خادما لشاعرة عجوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الأحلام بأنه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » • وهكذا تجرى القصة فى تدفق سمولت اللاهث ، بفقرات تتصل الواحدة منها ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة قوية بذيئة • وفى لندن يصادق رودريك مجموعة جديدة من الأصدقاء الغريبى الأطوار ، بما فيهم الآنسة ميلندا جوستراب والآنسة بدى جرايبويل • ثم يمضي الى باث بمزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحلوة ويظفر بمحبتها له ، ثم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ••• ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشترى » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جميكا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدبر بشكل ملحوظ » • وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحقة فانى استمتع بها • لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد أن رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا يجود به غير رباط الزوجية الطاهر » •

وراجت رواية رودريك راندوم • وأصر سمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء• وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فانكفأ الى الأدب • وفى ١٧٥١ أصدر « مغامرات بريجرين بيكل » • وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارىء لجولة من الاحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شـــخوصه ، ذلك هـــو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بانه « سيد من طراز غاية فى الغرابة» كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عينـــا وعقبـــا فى الخدمـــة العسكرية (١٠٦) » وهو يصر على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير • ويأمر خادمه توم بابير بأن يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كأنه سمكة « قد » لاهثـــة ، وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق » فاه بالتأييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هنا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) •

ويواصل سمولت مرحه خلال وصف صـــاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، ألا يسمح لها بأن « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى أحكمت وثاقك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » • ويطمئنه الكومدور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريحا فى مؤخر السفينة فى ذيل أى ـ فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنـــه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ••• وكأنه يخشي فى كل لحظـــة من تحلل عناصر الطبيعة » • ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها أصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » • على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتنكفىء المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » •

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى أربعيناته بأنه « وســـيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه ـ بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة ـ منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » • وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه • قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجـــل بغير

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن خدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيما ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجا محبا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله فى لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعـــامه وان لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم فى فرقة من المســـاعدين الأدبيين . وكان رائدا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟) فى الزامه تجـــار الكتب بتأييده فى شرط يليق بعبقريته . وكان أحيانا يكسب ســتمائة جنيه فى العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . وأقنع جاريك بأن يخرج تمثيليته « العقاب » ، التى نجحت بفضل هجماتها على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة «البريطانى» لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب ـ أو أشرف على كتابة ـ تاريخ لانجلترة من تســـعة مجلدات (١٧٥٧ ـ ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبى » المؤلف من الكتاب الماجورين فى جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعـــالم » وكتابا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام. ونصحه طبيبه بأن يستشير اخصائيا فى مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضي اليه ، وأخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدى ، دليل على اصابته بالسل ، واذ كره العودة الى رطوبة انجلترة وخضرتها، فقد ظل عامين فى القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات فى فرنسا وايطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى فى رواياته ، تلك النظرة الحادة اللماحة التى ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . وأخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيه فيهم دون مواربة ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والايطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحـكم على

الفرنسيين بانهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغـــلاف من الأدب والكياسة • استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسيا ادخل الى أسرتك •• لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطارح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فاختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك ••• أو جدتك ••• فاذا كشف أمره ••• صرح فى صفاقة بان ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد فى فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » •

وعاد سمولت الى انجلترة وقد تحسنت صحته كثيرا • ولكن علله عاودته فى ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء فى باث • غير أنه وجد مياهها عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفى ١٧٦٩ عاد الى ايطاليا • وفى فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة همفرى كلنكر » وفى رأى ثاكرى أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » • وهو ولا شك أمتع وألطف كتب سمولت اذا استطعنا أن نطيق شيئا من القذر • وفى مطلع القصـــة تقريبا نلتقى بالدكتور ـ الذى يتحـــدث عن الروائح « الطيبـة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه يتقزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لذعا وحرافة حتى من هذه • وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحة من الشخوص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتاع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه ســـمولت بآرائه • وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعـــا فى نفسه من قوتها الشافيه • وهو يكره زحام الجمـــاهير ، ويغمى عليـــه مرة من رائحتهم المتجمعه ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة • يقول :

« ان الخبز الذى آكله فى لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد العظام ؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القوم الطيبون هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لأنه أكثر بياضا ... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم ... والطحان أو الخباز مضطر الى تسميمهم ... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى يأكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز .. .. ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس ويأكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبىء بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضي اللياقة اخفاءه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربة ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيثا برامبل (أخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بابداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر ـ الذى يقابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بأنه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم ـ « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخوته ممتطيا جواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود أمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شووا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون »، ولأنهما زعما أنهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال ألفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ؛ وقد أنكر خلود نار الجحيم ، بل قذف ببعض مفرقعاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفرى كلنكر » مطبوعة . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات فى فيللته الايطالية غير متجاوز الخمسين ، بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى، وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر دون أن يعوقها عائق من المواعظ .. ورسم الشخوص أقل لفتا للنظر فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب التى تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد ـ بالمبالغة فى خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص ـ انتقل الى دكنز ، الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التى بدأها ماثيو برامبل .

هؤلاء الكتاب ـ رتشردسن وفيلدنج وسمولت ـ اذا أخذناهم معا، وجدناهم يصفون انجلترة منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين ـ الذين يضلون طريقهم وسط الشذوذات . فكل شيء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا التى أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم ليللو الى الدراما ، وجاى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ ـ الليدى مارى

بهذا اللقب ألفت انجلترة أن تلقب المع الانجليزيات فى جيلها ، المرأة التى دخلت تاريخ الآداب والحادات بهجومها على التقاليد التى حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل مدم دسفينييه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهى حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييربونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان ستة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المترف ، ثورزبى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، ونبدى ذكاءها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تتفقان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيليات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد .. وكان اديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المامها بالآداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ ابوه سدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) ـ وهو فى الثلاثين ـ رجلا ذا شأن وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسي فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بان أقول هذا (وأنا عليمة بان قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشيء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هى اول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك الا تتوقع رسالة اخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المتانية . فلما مرضت بالحصبة أرسلـــه اليها رسالة قصيرة كانت أخر مما ألف أن يرسل : « كان يفرحنى كثيرا أن أسمع بأن حسنك قد أوذى جدا لو كنت أسر بأى شيء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أننى ـ لو تزوجتنى ـ ساهيم بحبك شهرا ، ويحب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . ففى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لانسان ، ولكننى لا أدرى أأستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليهـــا ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات الماليـــة واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وان كان معنى هذا ألا تتوقع مهـــرا من أبيها . وأنذرت ورتلى انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقيـــا فى نزل ، وتزوجـــا فى اغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنـــا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اســـمه ادورد ورتلى دون القـــابه شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصـــول وليدها . وفى ابريل لحقت بورتلى فى لندن ، وهناك ولد طفلهـــا الأول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضـــو لجنة صغيرا . واستأجر بيتا قرب قصر سانت جيمس . وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى مارى غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف الاصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الأربعاء ، والى المسرح أيام الخمس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول، ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديهتها الحاضرة ، ونسي لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ، وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء
لم يجرؤ بشر بعد
أن يشك فى علو كعبك ،
ولكن من الرجال ذوى الفطنة
من رأى ان التسليم لسيدة
فى أمور العلم أمر عسير .

ان المدارس الوقحة ،
بقواعدها الغبية البالية ،
انكرت التعليم على الاناث ،
وكذلك يذكر البابويون
على الناس قراءة الكتاب المقدس
مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول
من ذاق لذة المعرفة
(رغم انها لعنت)
ويجمع الحكماء
على أن القوانين يجب أن تقضي
بالحق لأول مالك .
اذن فاستانفى أيتها السيدة الحسناء
فى جراة ذلك الحق القديم

الذي هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الأولى
قد عوقبت عقابا صارما
لأنها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فأى عقاب جديد
يقضي به عليك ،
يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض أعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافة . وشاركت الليدى مارى فى هـذه اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما الزوجية البتارة أبيات الشاعرين رشـاقة ولذعـا . ولم تنشر هاتين القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسـخ مخطـوطة منهمـا بين الأصدقاء ـ واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امـرأة تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجعة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع أنها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ، ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين أثرا من ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الأمام . ومع ذلك ظفر ورتلى بالمكافأة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة » فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق مرتعا للأحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس فى الآستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى اول يوليو ، رسالة أشرفت على شفا الغرام باسلوب أنيق :

« لو خطر لى أننى لن أراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن أتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الآستانة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية المنمقة المألوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى أول أغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك أنت وقلة اخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد أن الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع أحد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تأثيرها على ، وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا أقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو أحكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه اضاف امله بان تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى أعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، ان شئت ان احمل الاشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاج ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم اكن فى حياتى ميالة ولو نصف ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها اياه « صديقها فقط » . واحتفظت مارى بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشعراء الأحياء .

وبلغت الجماعة الآستانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم فى تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدرى ، وطعم الدكتور ميتلاند الجراح الانجليزى فى الآستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن أى رسائل فى هذا الجانب من جوانب مدام دسفنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بانها أدب ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لأصدقائها « أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسفنييه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلى لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك أنصحكم بألا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تأخذ تأكيداته مأخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاح والحب . وقد تصور تركيا فى خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعسات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام ـ حتى الخيار ـ مقطعا » . ثم أضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصيا قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الآستانة فحسب ، بل الى أرجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لأقبح الرجال صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضي الالهى » . ويقول انه سيعتنق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) » . وأقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكأننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطريننى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

وأخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الآستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفـــا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نللر . وعقب ذلك دفع بوب لنللر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجـــاد نللر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممتلئتان امتـــلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب ـ وقد أشاد بهما جاى فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمّز ،
وسيماء الجلال والصدق السعيدة ،
ونظير هذا من تألق فى الذهن الرفيع
حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،
علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،
عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجـــه ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها الفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشترت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطا مدمرا ، فاصبح الآلفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فارسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الآستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسنرى فى مكان لاحق تاثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجاة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة أثارت القيل والقال فى تويكنهـــام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « ألمع ذكاء فى العـــالم » . وزعمت الليدى مارى أن بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وأنه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات بسهام يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن ســـويفت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شـــعبية ظـن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصـائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الاعيبك يا ليدى مارى ،
ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بافراخك ،
وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،
فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « ســـافو الهائجة .. .. التى ابتلاها حبها بمرض ... » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهرى (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بان ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيـــار زواجها . ذلك أن ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

اهمالا واضحا فى تويكنهام . وقد جعله موت ابيه (١٧٢٧) رجلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . واخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتها التى غدت امراة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امراة . ولابد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النوع الانسانى الى رجال ، ونساء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكها وغير مساره . ذلك هو فرانتشسكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد اثار بعض الضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البلاط ، والتقى بهرفى وبالليدى مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا ، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها انها فى السابعة والأربعين وانه فى الرابعة والعشرين . وبدا أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (أغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا ارسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف باى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى اقوى مما ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن اخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلى يجب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسي . فمجرد فكرة مشاهدتك اعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدوءها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا : فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا فى الليدى مارى ، منبها اياه الى أنها كانت تذيع على لندن كلها غزوها الايطالى بهذه العبـــارة المزهـــوة Veni, Vidi, Vici « جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : أخشي أن أسيء اليك بارســالى هذا الخطاب حتى ولو كان قصدى أن أسرك . والحق أننى مجنـونة فى كل أمر يتصل بك حتى أننى لست واثقة من خواطرى .. كل ماهو مؤكد هو أننى سأحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغـــم تهديدها بالانتحار . أما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقـول « فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بأنها فى حاجة الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف الانساذ المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها راتبا ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها دخلها السنوى الذى أوصي به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها . وســافرت باسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيـــه صـــالونا ، واستضافت الأدباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبـــلاء البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآهـا هوراس ولبول هناك ، وأرسل الى هـ . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل أنبأتك بأن الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضـــحك من الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليـدى بومفريت ،

وتضحك منها المدينة كلها • ولابد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ، تدهش أى انسان لم يسمع باسمها • فهى ترتدى قبعة بشعة (تربط تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة من التيل • وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات ـ غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض •• وقد قامرت مرتين أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الأميرة كراءون حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب • وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبنى القليل من أعمالها (١٣٨) » •

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملة توخيا للراحة ، وما من شك فى أن وجه مارى كان منقرا جدا ، ولكن ليس بالزهرى بالتأكيد (١٣٩) • وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء مخطوطاتهم • وقد أثارت الليدى مارى استياء ولبول الشاب بمصادقتها لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيه • ولعل الليدى مارى كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن ظنت أنها فقدت الجاروتى الى الأبد •

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس ١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين • ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ، وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضي هو الى برلين ، وهى الى جنوه ، هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجه الى مركبتها أبياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بان تحملى
جلد الليدى مارى المعفن ،
اذهبى بها الى أقصي ركن فى ايطاليا ،
وأنزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذي مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها أصبح عضوا فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركا معظم ثروته لابنته ، و ٢٠٠ر١ جنيه فى العام لأرملته . وعادت الليدى مارى الى انجلترة (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت أحدى وعشرين سنة ، اما لأن موت زوجها ازال عقبة خفية فى سبيل رجوعهـا ، واما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير أن الأجل لم يمهلها أكثر من سبعة أشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك أن مطاردتها لألجاروتى ، وأنباء كتلك التى أشاعهـا عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوأت سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيـــو بدأت الليدى مارى تشكو ورما فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بأنها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهور من الألم (٢١ أغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهـدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجا لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنـــع نشرها . على ان الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتهـــا ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد

احرقت الليدي بيوت قبل إن تموت فى ١٧٩٤ يومية امها الضخمة ، ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها فى ١٨٠٣ ، اما الرسائل التى كتبتها لألجاروتى فظلت طى الخفاء الى أن اقنع بايرون جون مرى بأن يشتريها من صاحبها الايطالى (١٨١٧). ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليـدى مارى تشارك بوب ، وجراى ، وجاى ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ، الفضل فى جعل أدب انجلترة أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعـا وحيوية وتأثيرا